٣

(تتمة)

انشأ عرضنا ، في القسم الثاني من مقالنا ، لدور النساء ، نوادب وشواعر ، في تحريض الموتور على الاخذ بثأره . ثم انتقلنا الى موقف الموتور من واتره عند الاثنار ، وانتهينا الى اثر هذه العقيدة حتى بُعيد الاسلام. وبهمنا الآن ان نبحث في الضحية المختارة هدفاً للثأر فنجرّب وصفها ، متطرّقين في القسم الاخير الى ذكر تلك المحاولات التي اخذ بها حكماء العرب ، قبيل الاسلام ، وغايتهم تخفيف نتائج الثأر باقرار الدية .

وان لنا في حكاية قيس بن الخطيم ما يدفعنا الى التعمّق في فهم عقيدة الثأر وما كانت تمثّل في عقلية البدوي الجاهلي . وقد سردنا تلك الحكاية في القسم الاول من المقال . على ان ما لم نسرده هو كيفية موت الشاعر المذكور . وتفصيل ذلك انه ، بينما كان مارًّا في حيّ بني حارثة في المدينة ، أُصيب بثلاثة اسهم ، فخرّ صريعاً . ولم يُعرف مُطلق الاسهم . ألا انها طارت من أطم لبني حارثة . فكان على اقرباء قيس واصحابه ان يأخذوا بثأره ، وهم لا يعرفون الواتر : على انهم لم يتراجموا ، ولم يتردّدوا لحظة في اختيار الضحية . واذا بهم يهجمون على ابي صعصعة يزيد ، لا لكونه ظهر على شيء من الاضطلاع بالجريمة ، بل لانهم لم يروا سواه كفوًا لقتيلهم ، وهو من سادة بني النجّار المنتسبين الى بني حارثة . فقتلوه ، وساروا حتى اتوا قيس ، وهو يحتضر ،

فوضعوا رأس ابي صعصعة امامه على الارض . فطابت نفس قيس ، ومات[1].

ولا يخفى ما كان قد وقر في اذهان العرب في ما خصّ الضحايا ، وسلامتها من كل عيب او دنس ، كي يتقرّب بها المضحّي من مقام الالوهية[2]. وكلما كانت الضحية سالمة صحيحة ، زادت قيمتها ، فرضي الاله عنها . هكذا نظر العرب الى ضحاياهم الدينية ، وهكذا نظروا الى ضحاياهم في سبيل الضيف ، والضيافة مظهر من مظاهر « الدين » القديم كذلك ، فافتخروا بانهم لا يقرون الضيف الا ما كان صالحاً من اللحم :

وانا لنُقري الضيف ، ان جاء طارقاً ، من الشحم ما أسى صحيحاً مسلّما (٣

وهكذا نظروا ايضاً الى ضحاياهم في سبيل الثأر . فلا يقوم بثأرهم فيَنفس عن الميت ، الا قتلُ السيد ، او اكرم شخص في قبيلة الواتر . « ان الدم الكريم هو الثأر المُنيم ! »[4] كما قالوا ، او كما قال الشيبانيون ، على اثر مقتل بسطام بن قيس : « لا يوفي ببسطام قتيل ! »[5] ذلك ان الثأر ، كان قد اصبح هو ايضاً عملاً دينياً تُفرض فيه الضحية . فكان يُنظر فيه الى سلامة الضحية واهميتها لتزداد قيمةً في نظر المضحّي والمُضحّى له ، وتخفّف به وطأة المصيبة على اسرة القتيل .

لقد كان في مبدأ الثأر ان العقاب يجب ان يتناول الواتر نفسه ، اي قاتل القتيل . على ان الموتور كان يقوم بمعادلة بين الجرم وعقابه ، بين القتيل والضحية . فكان الحرّ ، عضو القبيلة ، يُقتل بالحرّ ، والمولى بالمولى . وهو المبدأ الذي

---

١) اطلب ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١–٣

٢) راجع في ذلك : ابو دؤاد : السُنن (طبعة الهند) ٢ : ٣ ؛ الدارمي : السُنن (مخطوطة المكتبة الملكية في القاهرة) ص ٢٨٥ ؛ Gaudefroy-Demombynes, *Le pèlerinage à la Mekke*, Paris, 1923, p. 279

٣) حسان بن ثابت : الديوان ٤ : ٣٠

٤) الجاحظ : الحيوان ٢ : ٣

٥) الاصمعيات (طبعة Ahlwardt) ٦٣ : ٧ ؛ ابو تمام : الحماسة ، ص ٤٥٩ – ولا يظهر دور بسطام السياسي الا بصورة من ذلك الدرس العميق ، الظاهر ، مع ذلك ، على شيء من الابهام والغموض ، الذي نشره :

Erich Bräunlich, *Bisṭām ibn Qais, ein vorislamischen Beduinenfürst und Held*, Leipzig, 1923.

اقرّه القرآن فيما بعد ، فقال : « الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى »[1] والذي دلت عليه حادثة حُصين بن الحمام السهمي ، المرويّة في الاغاني ، وتفصيلها انه كان له جار يهودي فقتله ابو جوشن ، احد جيران بني صُرمة ؛ فجاء الخبر حصيناً ، وكان حُصين من اعقل اهل زمانه ، فلم يتردّد بان يجيب المخبر بقوله : « فاقتلوا اليهودي في جوار بني صُرمة »[2] — جار يهودي بجار يهودي ! — فاتوا جهينة بن ابي حمل ، فقتلوه . فشدّ بنو صرمة على ثلاثة من حيّ بن عامر ، جيران بني سهم ، فقتلوهم . فقال حُصين : « اقتلوا من جيرانهم ، بني سلامان ثلاثة . » ففعلوا[3] .

وهكذا لم يكن الانتقام ليقف عند منطوق العدالة البدوية الماثلة بالتعبير الموجز : « رجل برجل » ![4]

على ان القرآن ، وهو اقرب الى الانسانية من ممثلي تلك العدالة ، صرّح عالياً بانه « لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى »[4] . ولكن كان من الصعب ان يسمع له اولئك البدو ، وان يعملوا باحكامه . وهم ، فوق ما كانوا يعتبرون من السعة الشاملة الملقاة على عاتق اسرة القاتل كلها بل على عاتق قبيلته جمعاء ، كانوا يعتبرون حالةً اخرى لا تدخل في مجال قياساتنا ، وعنصراً صعب التحديد ، الا وهو مركز القتيل من المجتمع ولا يخفى ما في تقدير هذا المركز من الافتئات ، والاستبداد بالرأي ، والاتكال على تقدير البدوي الشخصي ، وهو ميّال بالفطرة الى التأثر بالهوى ، مُتشبّع بما وقر في ذهنه من سموّ قدره ، واهمية مقامه الاجتماعي . ولنا في عدة حوادث ادلة ساطعة على ما قدّمنا ، من ذلك حادثة جُوَيّ المُزني ، وقد اصابه الخزرج في قتالهم للاوس ، فلما احسّ بالموت ، رفع رأسه ، وقال : « اعطي الله عهداً ليُقتلنّ منكم خمسون ليس فيهم اعور

---

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٧٣

٢) الاغاني ١٢ : ١٢٤

٣) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٢١ ، ٦٤١

٤) القرآن ٦ [الانعام] ١٦٤ ؛ ١٧ [الاسرى] ١٦ ؛ ٣٥ [الملائكة] ١٩ ؛ ٣٩ [الزمر] ٩ ؛ ٥٣ [النجم] ٣٩ .

ولا اعرج»[1] وهكذا قدر ذاك البدوي العامي نفسه بخمسين من افاضل الرجال ! غير مكترث بالشريعة الداثرة : رجل برجل ! فكيف لو كان من السادة الكبار ! كالزبير بن العوّام مثلاً ، حواريّ محمد ، الذي قُتل غدرًا في يوم الجمل. فلم يكن اهله ليرضوا برأس القاتل ، وهو من عامة الناس[2] . وعلى هذا القياس ، لم يكن اهل القتيل ليرضوا برأس القاتل ، اذا كان من اولئك «الخلعاء» المنبوذين الذين «تخلعهم» قبيلتهم لتتخلّص من تبعة اعمالهم ، وتصرّح بانها لا تأخذ بثأرهم اذا قُتلوا[3] . فيقول الموتورون ، اذ ذاك ، وحقّ لهم القول ، ان لا نسبة بين فقيدهم وقاتله «الخليع» .

على ان البدويّ الموتور ، حتى في غير هذه الاحوال الخاصة ، يدّعي داغاً ان لا نسبة بين فقيده والواتر . فالفقيد الكريم ، وكل فقيد كريم في نظر اهله بل هو «خير الناس !»[4] افضل من القاتل . واذًا على الموتور ان يرمي افضل اهل الواتر ، اي سيد القوم . عليه ان يرمي بقتيله «خير الناس» او «افضل الناس»[5] كما يقول ، ولا يعني بخيرهم اعظمهم فضائل اخلاقية ، بل ارقاهم مركزًا في المجتمع ، وهذا المركز وحده يهمّه في ادراك ثأره . فهو يضرب «كبش القوم»[6] ؛ ذاك الذي يكون «اعزّ فقدًا وهالكاً»[7] . وهو ما دام لا يرتاح الى انه رمى افضل القوم واشرفهم ، يظلّ قلقاً مضطرباً ، ولو قتل بقتيله سيّدَين بدل السيّد . فان دمهما لا يفي بدم فقيده ، كما يقول:

---

١) ابو تمام : الحماسة ، ص ٤٤١

٢) الاغاني ١٦ : ١٢٢

٣) الاغاني ١٩ : ٧٦

٤) ابن عساكر : الكتاب المذكور ٥ : ٨٠ ؛ وان يكن ظالمًا فهو «خير الناس» . اطلب كتابنا : *Le Berceau de l'Islam* I, 127

٥) هي التعابير التي يرددها الشعراء الثائرون حتى تصبح من القوالب الانشائية — اطلب الاغاني ١٩ : ١٢٩ ؛ ٢١ : ٣٧٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ٤١٣ ؛ عبيد بن الابرص : الديوان (طبعة Lyall) ١٧ : ٩

٦) الاغاني ١٣ : ١٤٢ ؛ ١٦ : ١٢٩ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء ٣ : ٢٢٢ .

٧) عبيد بن الابرص : الديوان ١٧ : ٧

ونحن قتلنا سيّدهم بشيخنا سويد ، اذا كان وفاء به دما [1]

والسيد ، في حياة القفر ، يمثّل قبيلته ؛ فلم يكن له مندوحة عن ان يتحمّل شيئاً من مساوئ افرادها . على ان العادة التي شاءت ان تحمّله دم من يقتلهم ذووه كان من شأنها ان تدفع البدو الى الغلوّ والمبالغة في المطالبة بثأرهم . حتى اذا كان القتيل ذا خطر في المجتمع ، وكل قتيل ذو خطر في نظر ذويه ، كان الموتور لا يكتفي بقتل سيّد واحد ، بل يجمع بين المركز الاجتماعي والعدد . فيرمي الى قتل ثلاثة سادة بسيّده [2] ، « فيدرك ثأره ويزيد » ، على قول الافوه ، احد حكماء العرب [3] . واذا جرى البدوي هذا المجرى ، فلا حدّ ولا تحفّظ ، ولا اعتبار يوقفه عند عدد معلوم . بل هناك تسعة قتلى بقتيل واحد بعض الاحيان ، وهناك هجوم على قبيلة الواتر صيمها وموالياها [4] . وكلّما زاد عدد الضحايا عظمت قيمة الفقيد . وقد لا يكتفي الثائر بكل ما تقدّم ، اذا لم يضرب سيد القوم فيقتله [5] : فيظلّ ينشد فخره خافتاً اذا لم يحتمه بنغمة الثأر المتواترة : « قتلتُ سيدكم ! » [6] . وقد اصبحت هذه النغمة كتعبير طقسيّ يلفظه القاتل ، على اثر قيامه بذلك الواجب . حتى اننا نسمعها بعد الاسلام ، دالّة على تأصّل تلك العادة في البدو ، وفي الشعر البدوي وهو اجلى صورة للعادات القديمة . وهذا ان قاتل حفيد النبي ، الحسين بن علي بن ابي طالب ، في كربلاء ، يصيح مفتخراً :

قتلتُ خيرَ الناس أمّاً وأباً ؛ وخيرهم ، اذ يُنسبون ، نسبا [7]

---

١) الاغاني ١٦ : ١١٦ ؛ وراجع الاغاني ١٥ : ٧٥–٧٦ ؛ ١٦ : ٢٢، ٥٢–٥٤ ؛ البحتري : الحماسة : الباب الثالث عشر .

٢) الواقدي (طبعة Kremer) ٢٢

٣) الاغاني ١١ : ٤١ ؛ الاصمعيات ٣٨ : ٢٢

٤) لبيد : ديوانه (طبعة Huber) ٤٨ : ٢

٥) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٢١

٦) البحتري : الحماسة ، عدد ١٤٨ : ٥ ؛ حسّان بن ثابت : ديوانه ١١ : ١٦

٧) ابن الاثير : أُسد الغابة ٢ : ٢١

هذا ما يُستنتج من اقوال الشاعرين الشعرية الفخرية . اما الحقيقة فلم تكن دائماً لتوافق هذه الاقوال[1] . حتى ان البدو انفسهم عرفوا «كذب الباكيات»[2] ومبالغة الشعر الثأري ايضاً . كان من همّ الشاعر ان يزيد عدد ضحاياه ويضخم اهميتهم في المجتمع[3] ، فيصبح كل قتيل سيداً كريماً ، بل يصبح القتيل عدة قتلى ، فتزداد اهمية الفقيد المطالب بثأره ، وتزداد شجاعة الشاعر كذلك . وهذا دريد بن الصمّة لا يرضى ، في ثأر اخيه عبدالله ، الا بان يقتل «خيرَ لداته»[4] وهذا حسان بن ثابت يقتل كل السادة ، وكل الاشراف[5] ، دون تمييز . بينما غيرهما من الشعراء الشاعرين يتشدّدون بالتدقيق فيعدّون ضحاياهم ، ويذكرون مركزهم . فهم ثلاثة ، او ستة ، كما في قول الاجدع بن مالك :

ولقد قتلنا من بنيك ثلاثةً : فلتقرعنّ ، وانتَ غير مطاع[6]

او قول العباس بن مرداس :

قتلنا به في ملتقى الخيل خمسةً وقاتلَه زدنا ، مع الليل ، سادسا[7]

بل هم سبعة من خيرة القوم :

اصبنا به من خيرة القوم سبعةً كراماً ؛ ولم ناكل به حشف النخل[8]

حياة البدوي ثمينة في نظر اهله ، ودمه غالٍ لا يُعدل به دم رجل آخر ايًّا كان . فبئس الآية القديمة : «رجل برجل» ! وبئس ما فيها من مساواة لا يرضاها السريّ من البدو ، وكأنهم سراة ! وهكذا أُبدلت بتلك الآية آية

١) راجع في «اسراف الشعراء وافراطهم» اقوال الجاحظ : كتاب الحيوان ٦ : ١٤١–١٤٢ ، وكتابنا *Taif*, p. 145-146

٢) راجع القسم الثاني من هذا المقال : المشرق ، ص ٤٣٠–٤٣٦

٣) عبيد بن الابرص : ديوانه ١٧ : ٧–١٣ ؛ المفضّل : الفاخر (طبعة Storey) ص ٢٢٤

٤) شيخو : شعراء النصرانية ، ٧٦١

٥) حسان بن ثابت : ديوانه ١١ : ١٥–١٨

٦) في الاصمعيات ٤٥ : ٦

٧) الاصمعيات ٣٨ : ٢٤

٨) الاغاني ١٦ : ٥٨ ؛ الجاحظ : الكتاب المذكور ١٥٣ ؛ وراجع Nöldeke, *Beitr. Zur alten Poesie*, p. 149

جديدة فقيل: «سيد بسيد»، و«كريم بكريم»[1]. على انها لم تحلّ المشكل لان كلّ البدو اشراف كرام، كما قدّمنا. واذًا فقد ظلّ الموتور يرمي رأس القوم، فينتصر من سيد قبيلة واتره، وسواء أأصاب الواتر المذكور ام لم يُصبه. بل قد لا يفتّش عن شخص الواتر، فيضرب لا يبالي من يصيب على شرط ان يصيب رجلًا من السادة الاشراف:

وشريف لشريف مناجد لا نباليه، لدى وقع الاسل! (٢)

وعلى هذا فاننا نرى الرثاء الممتزج بالثأر يتشاطر الفخر، بل يزيده، افراطًا ومبالغة، مستندًا في ذلك، فوق العواطف الحالية، الى ما وقر في ذهنه من اساليب الشعر القديم وكلها تأخذ بالقسط الوافر من المبالغات. ولا يخفى ما في الشعر العربي من تأثير الاسلوب والاخذ بالقوالب المتوارثة[3]. حتى لا يتمكن البدوي الشاعر من ان يتخلّص من حكم تلك الحِكَم والامثلة الموجزة الجامعة التي لخّصت، في الشعر القديم، عقائد البدو في مناحي الدين والاخلاق والاجتماع، فقامت لهم مقام الكتب المنزلة متصفة بصفة تقرب من التقديس. اذا عرفنا ذلك، ادركنا بعض ما أهاب بمحمد فدفعه الى شنّ تلك الغارة على الشعراء، راغبًا في ان يُحلّ القرآن محلّ تلك الاخلاقيات والحكميات الجاهلية. بيد انه لم ينجح الا بجهد وصعوبة. نتحقق ذلك من اقوال المؤرخين المسلمين الذين يذكرون انّ البدو ظلّوا، حتى العصر الاموي، يخلطون بين الآيات القرآنية وحكم شعرائهم وامثلة حكمائهم الاقدمين؛ بل ان هذا الخلط كان يتجاوز جهلة البدو الى خطباء المسلمين انفسهم، اثناء خطبهم الطقسية، من على منابر الجوامع[4].

ولا يخفى ان هذا الشعر القديم مشحون بعواطف الثأر، وما تجرّه من فخر

---

١) ابو تمام: الحماسة، ص ٢٨٠؛ الاعشى في كتاب الاضداد (طبعة صالحاني – هَفنر) ص ٨٥

٢) حسّان بن ثابت: الديوان ١١: ١٧

٣) راجع في ذلك Nöldeke, *Fünf Mo'allaqât*, I, 3-5

٤) ابن عساكر: الكتاب المذكور ٥: ٨٣؛ الاغاني ١٦: ١١٣

وحماسة وتحريض ، ملآن بمآتي الموتور قبل ادراك ثأره وبعده . يردّد الموتور ذلك فيزداد حزنه حتى اليأس ، ويندفع في سبيل التضحية حتى لا يرضى بالثلاثة القتلى ، ولا بالستة ، ولا بالتسعة ، وان زاد عليهم ستة من السادة الكرام[1] ! وهو يسير ، في كل ذلك ، على اثر الشعراء الاقدمين متخذًا قوالبهم الفخرية ، منتحلًا عواطفهم نفسها ، فيصبح ، ولا فرق بينه وبينهم ، بفضل ما غذّى به مخيّلته من مفاخرهم القديمة فسحر لبّه ، وجعله لا يكاد يميّز بين اقواله واقوالهم ، ولا بين مآتيه ومآتيهم . فيرى افضل مظاهر الحياة الفخر بالبطش والشجاعة ، بل غاية الحياة نفسها غزوة مستديمة :

ليدرك ثارًا ، او ليدرك مَغنما[2]

واذا قُتل احد انسبائه في غزوة بسيطة ، فلا يرى الا حشد جيشه من « خيّالة ومشاة »[3] في سبيل الثأر ، وهو في الحقيقة لا يسخو بتعريض جواده للخطر ، هذا اذا كان له جواد ! [4] على ان الشعر غير الحقيقة ، الشعر المحفوظ المردَّد في ذاكرته ، والذي يهيب به الى المعارضة ، ومن شروطها المبالغة في كل شيء . وهكذا نراه يقتل ، شعرًا ، اهل بيتٍ « على دم واحد »[5] اي ليثأر برجل واحد . بل هو يلقي تبعة القتل على القبيلة كلها ، وقد يهدّد بافناء قبيلتين كاملتين : خزاعة وبكر ، مثلًا[6] ؛ وهل من حاجة الى القول ان خزاعة وبكرًا لم يبلهما الفناء !

وهكذا كان موقف المهلهل ، على اثر مقتل اخيه كليب ، عندما صرّح بانه سيفني حيّي قيس وذهل ، بل اراد ان يفني آل بكر عن آخرهم ، فقضى

---

١) الاصمعيات ٣٨ : ٢٤ ؛ ٤٥ : ٦ . . .

٢) الاصمعيات ٩ : ٢

٣) وهو قول دريد :

تكرّ عليهم رجلتي وفوارسي ، واكره فيهم صعدتي ، غيرَ ناكبِ

(الاصمعيات ٨ : ٥)

٤) راجع كتابنا : *Tāif*, p. 147

٥) حاتم الطائي : الديوان ، ص ١٢

٦) ديوان الهُذليّين ٢٠٠ : ٧ المفضّل : الفاخر ، ٢٥٢

اربعين سنة ، على قول الرواة ، في طلب ثأره . وهو مطلب يشبه ما طلبه صخر في ثأر اخيه معاوية اذ شهر حرب الفناء على آل مُرّة ، وعلى بني غطفان[1] . حتى اذا اصاب منهم مَن اصاب ، عدّ القتلى وصاح بانه غير راضٍ او يفني القبيلة ، او يبيدها فردًا فردًا .

على اننا نتساءل : هل كان صخر مؤمنًا بما يقول ؟ وهل كان يتقيّد فعلًا بواجبات الثأر ؟ وقد نرانا مضطرين الى الجواب بانه لا هو ، ولا سابقه المهلهل[2] ، ولا رجال قريش بعد انكسارهم في بدر ، ظلوا محافظين على التحريمات الشاقة التي كانت تفرضها عادة الثأر الدينيّة . وهذا ما يدفعنا الى القول بان تلك الطقسيات القديمة ، لم يبقَ منها قبيل الهجرة الا القليل الرامز الى اصلها . حتى انها لم تكن تحول في شيء دون متابعة الحياة العادية في مكة . وهذا صخر لا نراه ينفصل عن امرته ؛ كما اننا نرى المهلهل يتزوج عدّة مرّات اثناء طلبه بثأر اخيه .

اما في ما خصّ عدد القتلى ، فيحق لنا ان نحتاط الاحتياط نفسه . وهذا صاحب الاغاني يقرّ بصراحة ان قتلى قبيلتي بكر وتغلب ، طول حرب البسوس التي دامت اربعين سنة ، لم يتجاوز العشرة . بيد ان هذا العدد لم يكن ليرضي الشعراء ، كما لا يخفى . ولا تتغذى مخيلتهم بأقل من عشرين الى خمسين قتيلًا[3] واحيانًا كان القتيل نفسه يفرض هذا العدد ، قبل وفاته ، كما قدّمنا[4] . وقد يُضاعف عدد الخمسين ، فيبلغ القتلى مائة في ثأر رجل واحد . كما في حادثتي امرئ القيس والشنفرى الشهيرتين[5] . وهناك غيرهما من الحوادث تبلغ فيها القتلى مائة[6] وتزيد ، فيرى حسان ان مائة قتيل لا تكفي في ثأر فقيده[7] ؟

١) De Coppier, *op. cit.*, p. 17

٢) الاصمعيات ٦٩ : ٤

٣) ابو تمام : الحماسة ٤٤٢ ؛ المفضل : الفاخر ٢٣٠

٤) ابو تمام : الحماسة ٤٥١

٥) الاغاني ٨ : ٦٧–٦٨ ؛ ٩ : ١٥٨ ؛ المفضليات (Lyall) ١٩٦

٦) البحتري : الحماسة ١٥٤

٧) حسان بن ثابت : الديوان ٢٠٣ : ٦

ويبلغ بها غيره سبعمائة[1]، بل تبلغ احياناً الف قتيل في ثأر امير[2]. ولا يخفى ما في كل هذا من فخر وتبجُّح أصيلين في العنصر العربي.

ومما يجب ذكره ان الموتور كان شديد الايمان بان الله لا يميته الا بعد ان يدرك ثأره ويقوم بنذره، فيزيح عن صدره «هماً كأنه جبل»[3]. والله حقيق بان يسهّل عليه هذه المهمة، فيكلم الجرح الذي احدثه في نفسه مقتل قريبه. عند ذاك يستريح الموتور، فيتخلّص كالغزال الناشط من حبائله[4]. ولم تكن هذه الحبائل الا تلك التحريمات المفروضة على الموتور في سبيل ادراك وِتره، والتي عدّدناها سابقاً. ولا نجاة منها، في الاصل، الا بالثأر؛ وهو الذي يولي الحياة للموتور «الميت»، على قول مالك بن عمرو:

فليجدوا مثل ما وجدت، فاني كنت ميتاً قبل متى جَزَعُ! (٥

ويعيده الى معيشة القبيلة يشرب، ويلهو[6]، ويقول الشعر، مردّدا:

واصبحت قد حُلّت يميني، وادركت بنو عُمَيل تبلي، وراجعني شعري! (٧

وكان، قبل ذلك، قد ترك حتى قول الشعر في هجاء اعدائه. وبالتالي فقد ترك النسيب وما اليه مما قصده عمرو بن مالك بقوله:

لا اسمع اللهو في الحديث (٨ ...

كما ترك الفخر باعماله وباعمال قبيلته. وكلها تحريمات مفروضة على الحجّاج

---

١) الاغاني ٩: ١٥٦؛ ٢١: ١٤٢-١٤٣؛ المطهّر المقدسي (Huart) ٥: ٢٠١؛ وراجع Jacob, *Altbeduinenleben*, p. 145

٢) الاغاني ١٩: ٨٥

٣) البحتري: الحماسة ١٥٣: ١

٤) الجاحظ: الحيوان ٦: ١٤٣

٥) البحتري: الحماسة ١٤٨: ٢

٦) راجع الشواهد التي اوردناها في الصفحة ٧ و ٨ من القسم الاول من هذا البحث، مع اصلاح البيت الاخير من الصفحة ٧ بما يلي:

واحلّ لي ماوية النئلُ

اي ان ادراك ثأره احلّ له امرأته ماوية.

٧) ابو تمام: الحماسة، ٢٠١

٨) البحتري: الحماسة ١٤٨: ٢

ايضاً[1] ، مما يدل على صفتها الدينية . فاذا قام بثأره عاد الى كل مـا تقدّم ، فدخل في « الحلّ » ،

غيرَ مستحقبٍ إثماً من الله ، ولا واغـلٍ [2]

هذا ما يظهر من الشعر العربي في الثأر ، وهو صورة تلك المؤسسة القديمة في « دين » البدو .

اما التعبير « اثم من الله » فليس من السهل الوصول الى معناه الحقيقي . هل يقصد به الشاعر جناية على الله او امام الله ؟ ام هل ينبغي ان نرى فيـه معنى الخطيئة ؟ هذا ما رمى اليه ولهوسن[3] . على ان حلة استعمال هذا التعبير تفسح مجالاً للتأمل . ونحن لا نراه الا في شعر امرئ القيس هـذا ، ثم في اسطورة تأبط شرّاً اذ تلومه امرأته لتركه اخذ اقربائه وحيداً امام عدوّه[4] . ثم ان ما يخافه المرتو خاصةً هو « وَجدُ الاله »[5] ، اذا اهمل القيام بواحدة من التحريات التي يفرضها عليه واجب الثأر . اما اذا قام بكل ذلك فادرك ثأره فانه يلقى الله ، ولا اثم عليه ولا حرج .

وقد قدّمنا ان البدوي ، في ادراك ثأره ، يستحلّ كل الطرق حتى مـا يحرّمه منها دينه ، كما يظهر في حادثة رواها ابن هشام عن بني الـديل من بكر ، وكان لهم ثارات في بني خُزاعة . فخرج نوفل بن معاوية الديلي ، وهو يومئذٍ قائدهم ، حتى بيّت خزاعة ، وهم على مـاء لهم اسمه الوَتير . فاصابوا منهم رجلاً ، وتابعوا القتال . فتراجع بنو خُزاعة مستفيدين من الظلام ، ولجأوا الى حرم مكة مستأمنين . فلحقهم بنو الديل الى حدود الحرم ، فتوقفوا هيبةً . وارادهم قائدهم على متابعة الهجوم . فصاحوا به : « يا نوفل ، انّا قـد دخلنا الحرم ، الهلك ! الهلك ! » فقال كلمةً عظيمة ، على ما روى ابن هشام ، وزاد : « لا اله له اليوم . يا بني بكر ، اصيبوا ثأركم . فلعمري انكم لتسرقون في

---

١) قابل بما ورد في القرآن ٢ [البقرة] ١٩٣

٢) البيت لامرئ القيس في حماسة البحتري ١٥٢ : ٣

٣) Wellhausen, *Reste*, p. 224

٤) الاغاني ١٨ : ٢١٢ ٥) اوس بن حجر : ديوانه ٥ : ٣

الحرم[1] . افلا تصيبون ثأركم فيه . »[2]

وان هذا المثل وغيره من الامثلة التي عدّدناها في اقسام المقال تدلنا ، في ما تدلّ عليه، على ان العرب قبيل الهجرة كانوا قد رموا الى التحرّر شيئاً من اكثر تلك التحريمات: تحريمات الثأر ، وتحريمات غيره من مؤسساتهم الدينية القديمة. اما ما بقي من جوهر الثأر ، اي حقّ الموتور بدم الواتر فقد ظلّ مقرّرًا ، على ما بذله الاسلام ، عن طريق الخلافة والجماعة ، من جهود كانت ترمي الى دعوة صاحب الحقّ الى المحكمة المنظّمة هذه المادّة. وقد اظهر البدو ، كلما عرضت لهم الفرصة ، بانهم ينكرون هذا التدخّل في شؤونهم الخاصة ، معلنين ان لجماعة البدو وحدها — سواء اكانت حيًّا او قبيلة — الحق المطلق بالمطالبة بدم احد اعضائها ، وانه لا يمكنها ان تتنازل عن هذا الحق. ولنا في بعض الحوادث المهمة ، الجارية بعد الاسلام ، خير شاهد على هذه العقلية في اولئك البدو ، ولم يصبغهم الاسلام الا صبغة سطحية:

كان مصعب بن الزبير ، والي العراق ، قد سخط بقتل احد شذّاذ البدو ، فقُتل . فاخذ اخوه ابن ظبيان يُعدّ العدّة لادراك ثأره ، حتى اشترك في مقتل مصعب الثائر على الخليفة عبد الملك . على ان القاتل رفض مكافأة عبد الملك كي لا ينقص شيئاً من قيمة عمله في ادراك ثأره[3] . وهذا مثل آخر في مقتل المختار بن ابي عُبيد الثقفي ، وكان قد ثار على الخلافة بل على الاسلام الصحيح ، فقتله مصعب بن الزبير نفسه . فهلّلت الجماعة الاسلامية بكاملها ، ولم يُستثنَ منها الثقفيون انفسهم قوم المختار ، وامناء الدولة الاموية[4] . بيد انهم ، على الرغم من اخلاصهم الديني والوطني للدولة الحاكمة ، اعتبروا انفسهم مدفوعين الى المطالبة بثأر المختار ، ولاسيما اذ رأوا ان مصعباً امر بتسمير يدي

---

١) كان البدو في جوار مكة يسمون « سُرّاق الحجيج » ، وهو اسم طالما استحوه ، ولم يكونوا يحتجّون على من يدعوهم به .

٢) ابن هشام : سيرة الرسول ، ٨٠٢

٣) الطبري : تاريخه ٢ : ٨٠٩

٤) راجع كتابنا : *Taif*, p. 188-199

الثائر على باب جامع الكوفة[1] ؛ ولم يعتبروا ان هذا الشقي قد سقط قتيلاً في ساحة الحرب في ثورته على الخلافة[2] ، انما ما يهمهم قبل كل شيء هو ان دمه ذهب هدرًا . وعليه ، فقد تطوع احد افرادهم للاثآر له من مصعب . حتى اذا حميت المعركة ، اقترب من مصعب ، وقبل ان يضربه ، صاح الصيحة التقليدية : « يا لثارات المختار ! »[3] دالًا بذلك انه يقوم بواجبه كرجل ثقفي ، لا كجندي اموي . وهذه الفكرة نفسها هي التي قادت الحجاج ، والي خلفاء دمشق ، واداتهم التنفيذية العمياء ، الذي قضى حياته الادارية الطويلة مكافحاً عقلية البدو الجاهلية[4] . هذا الرجل نفسه ، عندما دخل الكوفة ، والياً عليها ، كان من اول مآتيه انه أمر بان يرفع عن باب الجامع ذاك الاثر الدامي الماثل شاهدًا على ثورة المختار . وما ذاك الا لان المختار كان من قبيلته من ثقيف . ونحن ، لو سألنا الحجاج ، وقد خلا الى نفسه فتخلص من واجبات الولاية ، رأيه في المختار ، لاجاب : « لله درّه رجلًا ودينًا ! »[5] ولا شك في انه يقصد « بالدين » ما كان يفهمه بهذه اللفظة عرب الجاهلية . ولا يزال البدو الى يومنا هذا ، يصيحون : « الثار ولا نترك الثار » !

***

لنعد الآن الى قبيل الهجرة . فاننا نرى حركة مباركة ترمي الى وضع حدّ لما تجرّه عقيدة الثأر من تعديات ظالمة . وقد اخذ بعض المفكرين يتصورون حلًا قد يكون افضل من تلافي احراق الدم بالدم . ولم يكن بدّ ، في هذه الحركة المباركة ، من الالتجاء الى الشعر ، والشعراء في طليعة المفكرين ، اذ

---

١) الطبري : تاريخه ٢ : ٧٤١ ؛ راطلب Van Gelder, *Mohtār de valsche profeet*, p. 134

٢) وهناك حوادث تدلّ على ان شريعة الثأر تُطبّق حتى في المعارك الجربة ، راجع ابن هشام : السيرة ، ٥٧٩ ، وقابل بحادثة يرآب ، وكيف اغتال أبنير لانه قتل مسائيل اخاه « بجبون في الحرب » (سفر الملوك الثاني ٣ : ٢٦-٢٧)

٣) ابن دريد : الاشتقاق ١٨٥ ؛ الطبري : تاريخه ٢ : ٨٠٦

٤) راجع ... *Taif*, p. 190 etc

٥) الطبري : تاريخه ٢ : ٥٢٥

ذاك . وهذا زهير بن ابي سلمى ، الشيخ الحكيم ، يقرّظ التحكيم ، ويمدح المصلحين بين القبائل المتعادية ، عارضاً ان «تُعفّى الكلوم» لا «بكلوم» جديدة ، بل بالتياق يُعطيها ، لا القاتل او قومه ، بل حَكَمٌ يكون غريباً عن موضوع الخلاف ، فهو «ليس بمجرم» :

تُعفّى الكلومُ بالمثين ، فاصبحت يُنجّمها مَن ليس فيها بمجرم.[1]

وهكذا عمل زهير وزملاؤه من الشعراء على تقريب التحكيم من عقلية البدو شيئاً فشيئاً ، فاصبح هؤلاء لا يستبعدون ، او لا يرون مستحيلاً ، ان يُحلّ مشكل الدم بغير اهراق الدم . وقد سارت هذه الفكرة ، معبّرًا عنها باسلوب لطيف يسنده مدح السادة الكرام الذين كانوا يقبلون بهذا الشرف العالي، شرف التحكيم، فيدفعون ثمنه غالياً ، وينالون عليه ثناء الشعراء الخالد ، من شاعر الى شاعر حتى دخلت التشريع القرآني . وكان السادة الكرام يتنافسون في الحصول على ذاك الشرف ، فيعملون على اقرار الطمأنينة شأنَ «فاعلي السلام»[2] ؛ وهم بقبولهم ان يحلّوا محلّ «صاحب الدم» متعهدين بدفع الدية البالغة مائة ناقة ، على اقل تقدير ، كانوا يعملون على نزع وليّ الثأر من تأثير النوادب المحرّضات . ومما يدلّ على ما لاقاه تعبير زهير من اثر صالح ان كثيرًا من السادة كانوا يطمحون الى لقب «حامل مثين» ؛ وهو تعبير سنراه كثيرًا في الشعر العربي بعد زهير . وها ان القرشيين الذين سقطوا يوم بدر يصبحون كأنهم من واهبي المئين[3] . . .

ويتناول الشعراء هذا الاسم فيضمونه الى جنب صاحب «المرباع» ، اي ربع الساب بعد الغارة ، وهو نصيب الرئيس المغوار[4] ، فيرفع حامله ، في نظر الرأي العام ، الى مقام المالك المتوّجين[5] ، فيقول حسان :

---

١) شيخو : شعراء النصرانية ، ٥١٧ ؛ واطلب شرح نولدك Nöldeke, *Fünf Mo'al-laqāt*, III, p. 29

٢) انجيل متى ٥ : ٩

٣) ابن هشام : السيرة ، ٥٢٢ ؛ واطلب كتابنا *Le Berceau de l'Islam*, I, p. 249-251

٤) الواقدي (طبعة Kremer) ص ١٨٦ ٥) اي النباهة والمناذرة .

حمّال اثقال الديات متوّج (١

وينتقل هذا الشرف من الاباء الى البنين ، فيفتخر الوالد بكونه « ابن حمّال مئين »[٢]. ويتهي تأثير زهير الى الاسلام ، فيعجب ارباب الحديث بتعبيره فيرون من اللائق ان ينسبوه الى النبي ، او الى جدّه عبد المطّلب ، مع موافقة النبي عليه[٣].

ثم يطلّ العصر الاموي ، واذا بخلفائه ، وهم حفدة سادة العرب وورثاؤهم ، يطالبون بلقب « واهبي المئين » ، ولاسيما بعد ان يدلّهم الاختبار على عجزهم عن التدخل في شؤون القبائل الخاصة ، وبالتالي على صعوبة صرف البدو ، بطريق النظام التشريعي ، عن عادة الثأر والانتقام الفردي.

ويجرّنا البحث الى ذكر حادث مهمّ دلّ على تأصّل هذه العادة الثأرية في عقلية البدو ، حتى في ما بعد الاسلام . هو حادث « العثمانيـة » . بعد وفاة محمد بخمس وعشرين سنـة ، تألف حزب خطير من مؤمني المسلمين للمطالبة « بثأر » ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان « المظلوم » و« الشهيد » . وقد فرضوا عليهم هذه المطالبة كما تُفرض الواجبات الدينية[٤]. ولا يمكن القول بان السياسة أثرت في عقيدتهم هذه . فان اكثرية حزب « العثمانيـة » ، في اول الامر ، رفضت ان تلتحق بالحزب الاموي . انما كان يهيب بها « دين عثمان »[٥] وحده ، وقد اتحد ، في نظر اولئك المؤمنين ، « بدين الله » ، فولّد فيهم الصفة الفرضية

١) حسّان بن ثابت : ديوانه ٨٠ : ٦ — ونسمع صدى ذلك في قول الاخطل :
ضخمٌ تُعلّق اشناقُ الديات به ، اذا المئون أُرِنّت فوقه ، حملا
ديوانه (صالحاني) ١٤٢

٢) راجع *Le Berceau...* I, 250

٣) اطلب الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ١ : ١٦٦-١٦٧ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٥٤ ؛ ابن قتيبة : معارف (طبعة مصر) ١٨٦

٤) وقد اعلن خطة هذا الحزب الشاعر الانصاري كعب بن مالك ، الاغاني ١٥ : ٢٨

٥) معاكسةً « لدين علي » ؛ اطلب ابن دُريد : الاشتقاق ٢٤٦-٢٤٧ ، وكتابنا *Yazid*, p. 167, 168 — ولا يخفى ان لفظـة « دين » لا تحتـمل هنا معنى الخضوع والطاعة (شراء النصرانية ٥٥٤ ، سطر ١) لان « دين عثمان » ظلّ « ديناً » حتى بعد وفاة الخليفة باكثر من قرن كامل.

نفسها[١] .

ولم يتحوّل دين عثمان الا بعد منتصف القرن الاول للاسلام ، فاخذ يميل الى نوع من الايمان بالدولة الاموية وبالاخلاص لها . وجعل خلفاء دمشق يوصون ولاتهم في المناطق البعيدة بالسهر على هذا « الدين » وباستعماله آلة للحكم[٢] . وفي رأينا ان گولدسيهر لم يُوفّق اذ قال ان اسم عثمان كان منذ البدء رمزاً بل كلمة تلخّص مرامي الامويين معاكسةً لاسم علي الذي كان يستخدمه اعداؤهم السياسيون . »[٣] فان هذا الوصف لا ينطبق الا على ما آل اليه هذا الحزب بعد الحقبة الاولى . ثم ان گولدسيهر يصرّح بانه « لا يفهم كيف نُسب الى العثمانية صُحار بن عباس الخارجي »[٤] ، وهو تضادّ ظاهري لا غير ، اذا فهمنا حقيقة « العثمانية » في اصلها[٥] .

وعلى هذا فاننا نرى بين الحنابلة انفسهم ، مع ما نعرف من تقيّدهم وتضييقهم ، انصاراً متعصّبين بل « غلاة » في التعصّب لمعاوية[٦] . ولم تكن غاية هؤلاء الغلاة ان يدخلوا في المشاحنات بين الامويين وخصومهم ، ولا ان ينتصروا للعباسيين او للعلويين او عليهم ، انما كانوا يحتجون بتكريمهم ذكرى معاوية على ما كانت تظهره بعض المذاهب الاسلامية ، حتى خارج البدع الشيعية ، من الاحتقار لشخص معاوية[٧] ، معتبرين ان كونه من الصحابة ومن خلفاء الاسلام لجديرٌ بان يفرض احترامه على جميع المؤمنين المخلصين . اما الخوارج فانهم ادخلوا في الاسلام كل عقائد المساواة الديموقراطية المتأصلة في البدو الاقدمين . ولم تكن لتهتم المشاحنة الدينية بين علي ومعاوية ، الا ما

١) راجع كتابنا *Mo'āwia*, p. 109 etc.

٢) الطلب *Mo'āwia*, p. 123-125, 182-183

٣) *Muhammed. Studien*, II, p. 119

٤) ويدعى ايضاً ابن عياش ، الطلب ابن الاثير : اسد الغابة ٣ : ١١

٥) ولا يدل كتاب الجاحظ في « العثمانية » على انه كان من هذا الحزب المتعرض في عصره . فان الكاتب الظريف لم يرَ في الموضوع الا مجالاً لعرض معلوماته وآرائه .

٦) راجع في « غلاة » معاوية مقالاً لحبيب زيات في المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٤١٠-٤١٥

٧) راجع *Yaʿqūbī*, p. 187 etc.

كانت تذكرهم به من مرامي السيطرة القرشية القديمة التي تحاول استعادة مركزها حتى في الاسلام. ولهذا لم يكن بامكان الآخذين بالمنطق من الخوارج، كصُحار مثلاً، ان يكتفوا بالانحياز الى الحياد بين «المعتزلة»[1]، ولا ان يعتبروا مقتل عثمان امراً مفروغاً منه. وهكذا كانت البصرة «عثمانية»[2]، وهي اكثر مدن الخلافة العربية فوضى، واقربها الى التعلق بعادات القفر البدوية[3]. وقد صرّح كعب بن مالك، والنعمان بن بشير، وحسّان بن ثابت، باسم هذا الحزب، في حضرة علي بن ابي طالب، عندما اخذ علي يحتج في مقتل عثمان ويعتذر قائلاً: «لكم عندي ثلاثة اشياء: استأثر عثمان فأساء الاثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، وعند الله ما تختلفون فيه الى يوم القيامة.» فقالوا: «لا نرضى بهذا العرب، ولا تعذرنا به.»[4]

فنتحقق من ذلك ان العرب داوموا على الاخذ بدين القفر القديم، حتى في الاسلام، وبعد استقراره. اما زمن المروانيين، ولاسيما منذ خلافة عبد الملك، فان اسم «عثماني» اصبح يعني المنتمي الى حزب بني امية. وفي هذا الزمن يصيح الشاعر ابن الزبير مهدداً ثوّار العراق، دائناً «بدين» عثمان:

فقي وجب، او غرّة الشهر بعده، تزوركمُ حمرُ المنايا، وسودُها
ثمانون الفاً دينُ عثمان دينُها كتائب فيها جبرئيل يقودها[5]

وقد آن لنا ان نختم هذا البحث في صفة الثأر الدينية عند العرب الجاهليين، بعد ان برهنّا، على اثر المطالبين بثأر عثمان، الى ما بعد الحدّ الذي وضعناه له في القسم الاول.

---

١) راجع *Mo'āwia*, p. 113-125، والمقصود بالمعتزلة حزب سياسي

٢) الجاحظ: ثلاث رسائل (طبعة de Goeje) ص ٩؛ الذهبي: ميزان الاعتدال ٢: ٢٢٩؛ ٣: ٢٢٧. وهناك «عثماني غالٍ» يُذكر في الكوفة لغرابة وجوده فيها، الذهبي: الكتاب المذكور ١: ٤٤٩؛ الطبري، في ذلك، كتابنا *Ziād ibn Abīhi*, p. 47؛ و *L'avènement des Marwānides et le califat de Marwān* 1er, p. 8

٣) *Ziād ibn Abīhi*, p. 27 etc.

٤) الاغاني ١٥: ٣٠

٥) الاغاني ١٣: ٢٨ – وابن عساكر (طبعة بدران ٥: ١٣٨) ينسب الابيات لابن خزيمة، وهو احد شعراء بني اسد ايضاً، الا انه عاصر معاوية.